طفرة القطار:

" إذا تأخّر عنك قطار فهذا ما يؤكّد بأنه سيأتي. فخور بنفسي داخل القطارات. متعة السفر بها لا توصف. أعني بهذا لمن يعرف معنى السفر بها. خاصة إذا صعدتَ في القطار الخطأ. لأنك ستكتشف أشياءً جديدة. قد لا نلتقي مجدداً. لكن إذا حدث ذلك فصدفتنا ستقع على متن قطارٍ ما. "

كانت الرحلة إلى محطة الجزائر العاصمة على وشك أن تبدأ إنطلاقا من وهران. دخلتُ مسرعاً حتى لا يفوتني القطار. هناك شبابيك خاصة باقتناء تذكرة سفر عادية. أخرى توفر تذاكرا للإستقبال. كلمتُ موظفا حول موعد الإقلاع. صرح لي متأسفا بأن التذاكر قد نفذت. تساءلتُ

عن السبب.
أجابني بأن القطار ممتلئ عن آخره وأنه لا يحق له أن يبيع لي تذكرة أخرى.
تعجبتُ من نظام سير هذا النوع من النقل. صرح أحدهم على مكبر صوت بأن الرحلة ستنطلق بعد لحظات. ما العمل. لاحظتُ وصول قطار آخر. فكرتُ. قصدتُ شباكاً لا يعنيني. الدفرة (١٠ دنانير) الأخيرة من القطع النقدية

إقتنيتُها
تذكرة. كانت
تذكرة
للإستقبال. غيرتُ
لهجتي
للوهرانية حتى
يتوضح للعون
الذي يتفقد
التذاكر بأنني
في انتظار
أحدهم. سمح لي
بالدخول. هرولتُ
نحو القسم
الثاني للقطار.
مكتظ
بالمسافرين. لم
أقدر على
الصعود حتى.
هذا يوم
الرهان. القطار
مكون من عربتين

ذات الطراز القديم. يصفر ويسعل دخانا من رأسه. توجهتُ نحو الدرجة الأولى. صعدتُ. كانت ممتلئة بالقاعدين فقط. أسندتُ ظهري نحو حائط في مقدمة العربة. بجانبي كانت هناك عجوز جالسة. مرّ موظف مرتديا قبعة قبطان حاملا عصا صغيرة. يتحقق من الأبواب ويغلق بعضها. قطار مريض وأنا أزيد من هلاكه. إختفى من ورائي

ليعطي إشارة للسائق حتى ينطلق. أبعدتُ نظري عنه نحو مؤخرة القطار. رآني أحد الكنترول الجالسين في مقعدين وسط العربة. مقعد لقاعه والآخر قد وضع عليه حقيبة مموهة بأوراق مختلفة اللون. تبادلنا نظرات غريبة. يتساءل عني - ذهنيا ربما - لماذا لم أجلس بعد. تساءلتُ أنا أيضا عن عدم

مجيئه
لاستفساري.
تعكرتْ ملامحه.
أنظر له وأفكر
في السائق
اللعين الذي لم
يفك فرامله
بعد. لم أبدي
أي ردة فعل.
زفر المحرك
أخيراً. تحرّكتُ
نحوه. حيّيته.
أزحتُ حقيبته
وأوراقه جانباً
وجلستُ أمامه.
إندهش وسألني
عن وجهتي:
- العاصمة!؟
- نعم!
- هل بحوزتك
تذكرة سفر؟

- لا!
- كيف هذا!؟
أريتُه تذكرتي.
لم يفهم شيئا.
- هل صعدت القطار بهذه التذكرة!؟
- نعم!
فجأة إنطلق القطار. قلت له في ذهني:
فلتفعل الآن ما شئت. القطار يمشي. أوقفه إذا كان بمقدورك فعل ذلك.
دار بيننا حوار:
- كيف صعدتَ إلى هنا؟

- كما يصعد
الآخرون!
- لكنك مسافر
بدون تذكرة!
- نعم. الشيب
قد أكل رأسي
وتنتظر مني أن
لا أشتريها.
حاولتُ إقتناء
واحدة لكن صاحب
الشباك يقول
بأنها قد نفذت!
- كان من
واجبك أن تنتظر
الرحلة
الموالية. هذا
النوع من
الرحلات مبرمج
حسب وقت محدد!
- لكنني في
عجلة من أمري.

يتوجب علي أن أصل إلى مستشفى "باشا" قبل فوات الأوان. هل تريدني أن أبقى هنا!؟

- لا طبعاً!

صمت خفيف. قال متنهدا:

- حسنا. إرجع لمكانك ريثما يمر عليك الكنترول المسؤول عن التذاكر!

- شكرا على تفهمك لي!

خطوتُ نحو حائط العربة الأمامي. ألصقتُ كف يدي بالأخرى خلف

خصري. تماسكتُ بهما. أدرتُ وجهي نحو النافذة لأتمعن في المنظر الخارجي. كيف كنا في المدينة وكيف غادرناها. بعد فترة، خرج كنترول آخر من مقدمة القطار. أخذ يرتّب بعض الكناشات. سيبدأ عشاءه بي. نظر إلي. سحبتُ من جيب سترتي الداخلي ورقة من فئة ٢٠٠٠ دينار. بُهتَ للحظة. أشرتُ له جهة

الكنترول الذي تحدثُ معه. أدار رأسه. أومئ له الآخر برأسه ليخبره بأن كل شيئ على ما يرام. أعاد أنظاره نحوي. قال لي بسخرية باردة:

- هلا أعطيتني ورقة من فئة ١٠٠٠!؟

- هذا ما عندي!

- ستسافر واقفاً إلى أن ينزل أحدهم!

- لكن ها هو مقعد فارغ! كان مكانا

فارغاً بجانب العجوز.
قال:
- تعصي وتتمرد ثم تحاول أن تستولي على أحد المقاعد!
- لكنه فارغ!
- ومن قال لك بأنه متاح. المقاعد هنا تتحدث بالتذاكر. ماذا لو دخلتَ قطاراً فارغا لكنه محجوز عن آخره. هل ستجلس؟
- لن أجلس. لكنني سأستلقي على الأرض ربما!
- من فضلك لا

تسخر مني. لقد أطلتُ معك في الحديث!
- لكننا..
غادرني من دون مسبقات. كانت العجوز نائمة بجانبي وحاجزة مكانا بحقائب صغيرة قديمة وأكياس. أخذ القطار يزيد من سرعته. بدأتُ أتعب. عطشتُ. أصابني ملل. جلستُ على الأرضية في وضعية اليوقا. غفلتُ قليلا. مرت حوالي ساعة. سمعتُ صوتا

عمقيا. توضح لي
طفل يبيع موادا
غذائية. عجيبٌ
أمره. أين كان
مختبئا طول تلك
الفترة. هو
يعرف متى يشرع
في البيع حتى لا
تُضبَط سلعته من
قِبل سلطات
القطار. إقتربتُ
منه قبل أن يصل
إلي. إنتزعتُ من
علبته
الكرتونية
قارورة ماء
بلاستيكية كبيرة
الحجم. طلب مني
٥٠ دينارا.
أعطيته الورقة
الأخيرة من جيبي

التي أرجعها لي الكنترول. قال متوسلا:
- أريد ٥٠ دينار يا عم!
- لا أملك ولا قطعة نقدية!
- أنا لا أستطيع أن أمسكها عنك. لن آخذ غير القطع النقدية. الورق يُخلق في آخر اليوم بهذه القطع..
همستُ له منحنيا ليسمعني:
- لو كنتُ أملك أوراقا أخرى لأعطيتك إياها. لكن جيوبي

تزقزق!
- ما العمل!؟
- لا أدري!
أرجعَ لي ورقتي ولم يردف بكلمة. تركني صارخا:
- ماء حلوى كاوكاو شوينڤوم ڤفريط..
- هاااي!
- ماذا!؟
- حقك!!
- الله يسمح يا عمي!
تبعتُه وهو يصرخ. أصبحنا نسير معا. هو يبيع وأنا أبحث عن صرف الورقة. لم أسأل أحداً.

وصلنا للعجوز. كانت مستيقظة. سبقتُ الطفل نحوها. سألتها باحترام بالغ:
- مساء الخير يا الحاجة. أريد صرفا لهاته الورقة!
سحبتْ في صمت محفظة للنقود. سوداء جلدية. فتحتها. كانت مملوءة بقطع من فئة ٥٠ دينار. يا للهول. تسوقتُ معها بعد شوط من الدرس في الرياضيات. أمثالها يتظاهرن بعدم

الفهم لأنهن أميات. لكنهن يفقهن خيرا من أي إنسان آخر عندما يدور الموضوع حول المال. أعطيتُ الطفل قطعتين لأنه دخل قلبي. كان يسترزق خبزه بصفاء واضح. لا يبخل في إبتسامته المخلصة. يتصدق بها أكثر من أن يتصدق له بها عابسو القطار اللعين.

توقف القطار عند أول محطة. نزل بعض

المسافرين. لم ألحظ بعدها ذاك الطفل. غاب عن أنظاري. جلستُ مقابلا تلك العجوز. معطيا ظهري لرواق العربة. برزتْ لي متعبة بعض الشيئ.
غفوة مني. أحدهم يكلمني من الجهة الأخرى:
- كم الساعة من فضلك!؟
- إنها تشير إلى الواحدة زوالاً!
تمتم كمن يتحاور مع

الهواء. لم يشكرني على فضلي. بدا لي متذمراً. ربما لم يعجبه توقيت ساعتي. أم أراد مني أن أرميها له وأقول:
إحتفظ بها لأنك سألتني عن كمية الوقت!!
نزعتُ الجريدة الفرنسية التي نسيتُها في الجيب الخلفي لسروالي. تظاهرتُ بلعب الكلمات المتقطعة. لا فائدة من ملئ الخانات. مضيعة

للوقت خارج
القطار ومداعبة
للمزاج داخله.
داعبتُ مزاجي.
فجأة. سمعتُ
ارتطاما
بالأرضية قبل أن
أرى العجوز
أنها فاقدة
لوعيها وهي
منبطحة كليا.
نهظتُ لا إراديا.
أسرعتُ نحو يدها
وأمسكتُ بها.
صاح رجل:
- أحضروا
ماءا!!
رجعتُ لمكاني
وأخرجتُ
القارورة
المنصفة من خلف

المقعد. مددتُها للرجل. مسكها. لم يفعل بها شيئا. هممتُ في شأن العجوز. رفعتُ يدها. نغزتُ على طرف إبهامها. رعشتْ قليلاً. قلتُ بصوت واضح وجِدّي:

- إنها واعية! إقترب مني الكنترول الذي استهزء مني سابقاً. همسَ في أذني:

- هل أنت طبيب؟

أجبته بصيغة السؤال وأنا أرش العجوز

ببعض من القطرات:
- أريد أن أفهم ما نوع الفضول الذي ينتابك!
أدار رأسه كمن يتأكد من العدم. ربما لم يفهم قصدي. قال وعيناه مغمضتان:
- عذرا! أردتُ فقط أن أعرف شيئاً.
- ما هو!؟
فتح عيناه. حدّق في عيناي كالملاكم الشغوف ببدئ نزاله. قال:

- من أنتَ!؟
بلعتُ ريقي.
تيقنَ لي بأنني اضطربتُ قليلاً.
سحب من جيب كتفه شارة صغيرة. وجهها نحو عيناي بخفية لم يستفق لها أحد ثم أعادها. همس بنبرة حادة:
- أترك العجوز حالاً. أريدك في حديث معزول عند السائق.
إنسحب مخرجا من جيبه علبة سجائر. اختفى وراء الباب تاركا إياها

مدفوعة لنصفها. ينتظر مني أن أتبعه. حملتُ العجوز مع شخص وشاب آخر. أجلسناها. إسترجعتْ وعيها وكلامها أيضاً. لو لم تثرثر حينها لقرّرتُ في نفسي بأنها بكماء. دخلتُ للكنترول المزعوم الذي بدأتُ أتأكد من فضوله نحوي. أغلقتُ الباب من دون أن يطلُب مني ذلك. قال: بطاقة التعريف من فضلك!!

نظر إلي السائق. إبتسم لي. ضحكتُ لهما. أجبتُه بسؤال:

- مذ متى أصبح أعضاء الإستخبارات يعملون في مصالح النقل!!
- علمتُ بأنك ستستفزني مرة أخرى!
- أتساءل بداعي الفضول مثلك!

سحبَ نفسة عميقة مغمضا عيناه. قذف عقبته بوسطاه عبر النافذة. إقترب

مني. نفث دخانه في وجهي. مثّلثُ دور الكاره للتدخين. إنحنيتُ. سعلتُ ولوّحتُ بيدي في الهواء كما تفعل النساء.

قال:

- أنت تُبلي بلاء ا حسنا!
- ماذا تريد مني!؟
- نحن نعمل هنا مذ أن أصبح أناس مثلك يسافرون في القطارات!

لم أفهم ما

الذي كان يعنيه بكلامه. شككتُ في نفسي. من أنا. مجرم أم مجنون. من هذا الرجل. ماذا أفعل في غرفة التحكم. قلتُ له ساحباً بطاقة الهوية:

- كان يحق لك أن تتفقد تذكرتي لكنك الآن أخذتَ القليل من خصوصياتي!!

- نحن نأخذ حذرنا من البسطاء مثلك!

ضحكتُ مرة أخرى.

قلتُ:

- البسطاء هم من يملكون قلبا طيبا ورقيقا!
- قلبك رهيف لأنك تضحك كثيرا!
- أضحكُ من النكت الجادة الخارجة من أفواه المجهولين حقاً!

نهد الكنترول تنهيدة اليأس. همهم في أذن السائق. رعبتُ قليلا. اتجه نحو

الباب. أقفلها بهدوء. أسدلَ ستارا أسودا عاتما على زجاجها.

اللعنة. أحرجتُ نفسي من لاشيئ. حاصرني ولا شك بعد الذي شاهدتُه. قلتُ مخاطبا الإثنان:

- ماذا تنويان فعله!؟

أجابني السائق ببحة حنجرته:

- سنلعب قليلا!

- لا أرجوكما. لم أعني ما قلته سابقا إن كنتُ قد أخطأتُ في

كلامي!

- وكأنك لا تعلم شيئا عن الذي حدث في الأسبوع الماضي!
- ماذا! لا أعلم شيئا! أنا من العاصمة!!
- ولو كنتَ من كوكب آخر!
- تباً. طفح كيلي. إفتح الباب يا كنترول و أرجع لي بطاقتي!!

مشى الكنترول نحو خزانة

صغيرة. نزع من داخلها مسدسا ووضعه فوق الطاولة. يريدني أن أفزع. الويل لي. لا خروج لي من هنا سوى بإذن أحدهما أو كلاهما. تقدّم للسائق. مسّه على كتفه مرتين. التفتَ السائق نحوي. بقيتُ مندهشا. لم أفهم شيئا. لكنني حدستُ مشهداً على وشك الوقوع. مسك السائق بالفرامل. لم

يتوقف لكنه
أبطئ من سرعة
القطار للدرجة
التي يسبقه
فيها عدّاء
هاوي. نهظتُ كمن
يستيقظ من
كابوس أسود.
حاولتُ الهروب.
لم ألاحظهما
خلفي لكنني
سمعتُ تصفيقاً
رشّاشاً. تلاه
تصفير قطار
متسلسل. بادرني
الكنترول بقبضة
على عنقي
أسقطني بها على
جنبي. حاولتُ أن
ألكمه لكن وعيي
راح يضعف.

القطار لم يكف
عن العويل. حتى
وإن صرختُ فلن
يسمعني أحد.
حاول أن يبحث
في جيوبي.
عضضته في
يسراه. صهل في
وجهي. مسكتُ بها
بكلتا يداي.
هنا انقلب
النزاع بعض
الشيئ. أكسرتُ
له مرفقه
بركبتي. حقاً
كنتُ أخفي وجهاً
آخر وقد كانا
على حق. صمتَ
القطار. جاءني
الآخر بسكين.
ضرباته

وتصدياته بارعة فعلا. شمتني في حنكي وفي ذراعي قبل أن أفجر له رقبته. ذكّرني بالأيام الخوالي في أعماق الشوارع. لماذا يحيون فيّ تلك الخلية الميتة. أردتُ أن أكون إيجابياً قدر الإمكان. هؤلاء هم نفسهم من يدفنون المواهب بكل أنواعها. يعرفون تلك الشعرة التي تقف في طريقهم فيحلقونها قبل أن تتكاثف.

وقّفتُ القطار في
نفق. خرجتُ
للعلن وسط
بلبلة فائقة.
مطأطأ الرأس
جراء شعوري
بالذنب. غير
دارٍ بوجهتي.
أحسست بأن
اللوم قد صبّ
عليّ من عين
سحابة حاقدة.
إنهال عليّ
أعوان الأمن
بالضرب. كبّلوني
وغلّلوني. بقيتُ
على صدري مُلقى
بإحكام. إنزلق
القطار مرة
أخرى. نعم. في
القطارات يوجد

أكثر من سائق
واحد. لم تمر
إلا بضع ثواني
حتى وجدتُ عناصر
الشرطة القميئة
عند مخرج
النفق. دفعوني
للفيطو بقوة.
الدرك باشرَت في
فتح تحقيق.
كانت وجهتي نحو
المستشفى.
أمسيتُ في السجن
للمرة الثالثة.

في ٢٠١٩.٠٣.٢٤
@gha2ib